

حوار الحضارات

مقام عبد القادر . جامعة تلمسان

مخلص

يضع الفقر والنزاعات الأمن وكرم الإنسانية والعدالة الاجتماعية في خطر. أمام هذه التحديات، إن حوار الحضارات المبني على قيم مشتركة عالميا، وقائم على الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات الأساسية هو المفتاح المثالي للتوصل إلى التفاهم والمصالحة والسلم للمدى الطويل.

Résumé

La pauvreté et les conflits mettent en péril la sécurité, la dignité humaine et la justice sociale. Face à ces défis, Le dialogue des civilisations fondé sur des valeurs universellement partagées, solidement ancré dans la démocratie, les droits de l'homme et les libertés fondamentales, est la clé idéale pouvant conduire à la compréhension, à la réconciliation et à la paix sur le long terme.

مقدمة :

إذا كانت مقولة صراع الحضارات التي تبناها المفكر الأمريكي "صمويل هنتغتن" مؤخرا تلقى بضالها في عالم تهدده الحروب و الموجات المدمرة في أكثر من بقعة وعلى أكثر من جبهة خاصة في عالمنا الإسلامي وما نشاهده عبر الفضائيات من مجازر ترتكب في حق الشعب الفلسطيني، فإذا كانت هذه المقولة تشكل الخلفية النظرية الضمنية أو الصريحة لجل القوى التي تحتكم إلى منطق القوة والمواجهات المدمرة، فهل تشكل مقولة حوار الحضارات النظرية الصلبة التي يمكن أن يتأسس عليها واقع نحلم

بسيادته، تميزه علاقات التعايش السلمي بين مختلف أمم عالمنا المعاصر وشعوبه ؟
و لعل مما يبعث على التفاؤل أن يلاحظ المرء ما تشهده الساحة العامة من تزايد
النشاطات والمؤسسات التي تعنى بتكريس نهج الحوار والسلم في العلاقات الفردية
والجماعية على نحو يؤكد تنامي اعتبار العقل البشري بدروس التاريخ وعبراته ويعكس
عزم الإنسان المعاصر على مناهضة تمادي البعض في انتهاج نهج الاستكبار واللجوء
للقوة والصراع في التعامل مع الآخر، وعليه أصبح حوار الحضارات ضرورة في الوقت
الراهن باعتباره وسيلة للتعايش في أمان ووثام. فما معنى حوار الحضارات وأهدافه ؟
وما هي مجالاته ؟

أولاً: مفهوم حوار الحضارات وأهدافه:

1: مفهوم حوار الحضارات: "الحوار أو المناظرة حديث شفهي يجري تبادل بين أكثر
من فرد، وجوهر الحوار هو التبادل السلمي للأفكار والآراء والمعلومات. و من حيث
الشكل يتم هذا التبادل من خلال التفاعل الكلامي، ويقصد منه التفاعل القائم على
تبادل الرموز اللغوية سواء كانت ألفاظاً أو إشارات لغوية وسواء تم التبادل شفاهاً أو
كتابة وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة".¹ وعادة ما يكون القصد من التفاعل
الكلامي تبادل الآراء والأفكار والمعلومات بشكل أكثر صراحة ووضوحاً، ويُعرف
باسم الحوار إذا كان التبادل متعمداً ومنظماً وأحياناً، رسمياً. وهذا المعنى الأخير، أي
التبادل السلمي المتعمد والمنظم للآراء والمعلومات من خلال الألفاظ اللغوية أو، نادراً،
من خلال الإشارات اللغوية، هو ما يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ الحوار. والحوار

بهذا المعنى المتبادر يمكن أن يتخذ أسماء وأشكالا خاصة مختلفة منها المفاوضات والمناقشات والمناظرات والمحادثات. " فحوار الحضارات هو التشاور والتفاعل الثقافي بين الشعوب، والقدرة على التكيف مع الأفكار المخالفة والتعامل مع جميع الآراء الثقافية والدينية والسياسية".² والأصل في الحوار في الثقافة العربية الإسلامية، هو المراجعة في الكلام، وهو التجاوب، بما يقتضي ذلك من رحابة الصدر، وسماحة النفس، ورجاحة العقل، وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيف، والتجاوب، والتفاعل، والتعامل المتحضر الراقي مع الأفكار والآراء جميعًا. أما الحضارة تختلف التعريفات المتداولة حولها اتساعا أو انكماشاً عمومية وخصوصية . وقد نقتصر هنا على القول بأن مفهوم حوار الحضارات يقوم على المعنى العام للحضارة "والذي يحدد الحضارة بذلك الكل الجامع لمختلف جوانب الوجود الخاص بصاحبها- الإنسان في هذه الحالة - سواء كنوع أو كمجموعات معينة. وتشمل هذه الجوانب، في ما تشمل ، الثقافة والفكر والفلسفة والمعتقدات أو الدين والقيم والفنون كما تشمل التقاليد والعادات والسلوك والنظم التربوية والسياسية والقانونية والاقتصادية والمنتجات سواء الأدبية المعنوية أو المادية".³ الخ وبموجب هذا المفهوم الواسع للحضارة يتسع مدلول حوار الحضارات ليشمل كل حوار بين الحضارات و في أي جانب من جوانب الحضارة ، و هو ما يعني أن ما يجعل حوارا ما حوارا بين الحضارات ليس هو مجاله أو موضوعه بقدر ما هو تعدد أطرافه من حيث الانتماء الحضاري .ومن ثم فإن ما يعرف بحوار الثقافات وحوار لحضارات مختلفة . وبالمثل فإن حوارات المؤتمرات والمنظمات الدولية تعد حوارات بين الحضارات سواء كان موضوع

الحوار شأنًا اقتصاديًا أو سياسيًا أو اجتماعيًا أو أخلاقيًا وسواء كان الموضوع المثار خلاف بين المجموعات الحضارية كـ بعض المواضيع المتعلقة بالأسرة والمرأة وحقوق الإنسان أو كان محل إجماع دولي كسائر المواضيع المجمع عليها في الاتفاقيات الدولية

ب: أهدافه: تتعدد أهداف الحوار الحضاري ومنها:

- التفاعل والتواصل: مهما كانت أهمية الحوار بين الحضارات و ضرورته و أيا كانت الدواعي القائمة لتعزيزه أكثر وكيفما تباينت أو تماثلت مسؤوليات المجموعات الحضارية عن ذلك فإن من المؤكد أن تعزيز الحوار بين الحضارات، بمفهومه المبين انفاً، لن يتحقق على النحو المرغوب لمجرد أهميته أو توافر دواعيه والرغبة فيه أو تمنيه من قبل قطاعات من المثقفين والمفكرين والسياسيين وإنما لابد لذلك من توافر بعض المقومات و المتطلبات الأساسية والتي في ظل، وبقدر، توافرها يمكن تعزيز حوار الحضارات و استكمال جوانب قصوره حتى يتمكن و يصبح الحوار هو الأصل في واقع العلاقات الحضارية و الدولية عموماً.

و من شأن التأمل في ما تمهد عن مفهوم الحوار و حوار الحضارات أن يساعد في تحديد المقومات والمتطلبات الأساسية لقيام حوار الحضارات و تأمين استمراره وفعاليته. وبعض هذه المقومات والمتطلبات هي ضرورة للحوار مطلقاً بينما البعض الآخر ضرورة للحوار الذي تتعدد الخلفيات الحضارية أو الثقافية أو الدينية لأطرافه كما هو الحال في حوار الحضارات . ومن الواضح " انه مهما توافر لدى المجموعات الحضارية، فإن إمكانية التواصل تكمن في الإيمان بالحوار وتظل ترجمة هذا الإيمان إلى

واقع عملي رهنا بفرص وإمكانيات التواصل بين هذه المجموعات"4. و العوائق المحتملة أمام التواصل بين المجموعات الحضارية تكون إما عوائق طبيعية كبعد المسافة أو عوائق اجتماعية كالقوانين التي تمنع التواصل أو تحد منه. وصحيح أن التطور التقني قد قلل كثيراً من أثر العوائق الطبيعية و حد من فعالية العوائق الاجتماعية إلا انه لم يبلغ تلك العوائق تماماً كما أن مدى الاستفادة من التطور التقني يتوقف على إمكانيات لا تتوافر بشكل كاف لسائر المجموعات الحضارية و حتى إذا ما توفرت لبعضها الإمكانيات المادية فإن القيود التي تفرض على انتقال التقنية العالية من قبل أصحابها يمكن أن تعوق وصول بعض المجموعات إلى تلك التقنية.

- التفاعل والاحتكاك الحضاري

" إذا كانت الحضارات صنعاً بشرياً فإن من الطبيعي القول أن التفاعل بين الحضارات هو أيضاً من صنع البشر وأنه يصدق عليه في أكثر الأحيان ما يصدق على التفاعل البشري عموماً. ولذلك فإنه، وبعيداً عن مقولات حتمية الصراع وأمنيات إلغاء الصراع أو انتهائه بين الحضارات، ظل التفاعل بين الحضارات يتراوح بين الصراع والحوار، والسلم والحرب، والتعاون والتنازع، والاسترخاء والتوتر تماماً كما هو شأن التفاعل بين أفراد البشر وكذا بين الكيانات البشرية الجماعية الأخرى كالأُسرة والدولة"5. وسواء كان التفاعل المباشر بينها ودياً أم عدائياً ، فإن الحضارات تبقى تتبادل المنافع، وترث اللاحقات منها عن سابقتها ما تبني عليها بعض عطاءاتها

وإنجازاتها، وصحيح أن قدرة ونوع الانتفاع ومجالاته تتحكم فيه عوامل عدة، وبقدر نمو هذا الانتفاع المشترك ينمو التراكم الحضاري الذي يشكل إرثاً إنسانياً مشتركاً. وبناء على عوامل عدة يتحدد نوع التفاعل، كما تحدد الوسائل والسبل التي تسلكها الحضارات للتفاعل مع بعضها. فالتفاعل العنيف يتوسل بالوسائل والأساليب العنيفة كالغزو والاحتلال والحصار والهيمنة بينما يتوسل التفاعل الحوارى السلمى بالوسائل والأساليب الودية كالمفاوضات وتبادل المعرفة وتوسيع حريات الانتقال وحل الخلافات بالطرق السلمية وتتشكل طبيعة ودرجة التفاعل بين المجموعات الحضارية وفقاً لعوامل عدة تتداخل مع بعضها البعض و يمكن إيجاز أهمها، في تقديرنا، كما يلي :

التصور للذات والآخر: يعد تصور المجموعة الحضارية لذاتها ولغيرها من المجموعات الحضارية عاملاً أساسياً في توجيه تفاعلها مع المجموعات الأخرى. فتصور مجموعة لأخرى على أنها صديقة أو عدوة لها يدفعها لتبني تفاعل ودي أو عدائي ، على التوالي، تجاهها، " والعلاقة بين التصور للذات والتصور للآخر علاقة وثيقة حيث أن عادة ما يكون التصور للذات أحد محددات التصور للآخر كما أن التصور للذات يتأثر أيضاً بالتصور للآخر"6 . وعلى سبيل المثال فإن التصور المضخم للذات عادة ما يستتبع تصوراً يميل إلى تقزيم الآخر، وأن التصور الاستعلائي للذات بناء على ، مثلاً، دعوى التفوق العنصري أو التفضيل الإلهي غالباً ما يميل بصاحبها إلى تبني تصور دؤني للآخر.

والتصور للذات يتشكل في إطار عوامل عدة منها مضامين التراث الحي للمجموعة وتاريخ المجموعة ووضعها الحاضر النسبي . إما تصور المجموعة للآخر فيتشكل في إطار عوامل منها، بالإضافة إلى التصور للذات، المعرفة المتاحة لها عن الآخر بغض النظر عما إذا كانت معرفة حقيقية أو خرافية ، والخبرة العملية القائمة على التفاعل المباشر.

المصالح والمبادئ : للمصالح كما تدركها أو تتوهمها المجموعة الحضارية دور في تحديد وجهة وكثافة تفاعلها مع غيرها . فإن مراعاة المصالح المشتركة بين المجموعات إتجاه مصالح الغير قد ينحو بالتفاعل منحى سلبياً صراعياً. وبالمثل من شأن الالتزام بمبادئ وقواعد معينة أن يوجه التفاعل الحضاري، إما وجهة حوارية تعاونية وإما وجهة صراعية وذلك وفقاً لطبيعة المبادئ والموارد محل الالتزام. ومن جهة أخرى قد تتعلق المبادئ بأهداف وأسس التفاعل، مثل مبدأ الانعزال/ الانفتاح ومبدأ المساواة/ التمييز، كما قد تتعلق بوسائل التفاعل مثل الموقف من مشروعية بعض الوسائل كاستخدام القوة واللجوء للغدر والخداع ، في العلاقات الدولية. وقد تتوافق المصالح والمبادئ وتتناسق مع بعضها تارة وتتناقض وتتعارض تارة أخرى. والغالب في واقع اليوم هو تقديم المجموعات لمصالحها على مبادئها عند التعارض.

البيئة الدولية : تؤثر البيئة الدولية في طبيعة ودرجة التفاعل بين المجموعات الحضارية باعتبارها البيئة التي يتم فيها ويتسم بسماتها العامة هذا التفاعل. فالبيئة الدولية التي

تتسم بالفوضى وتفتقر النظام تتيح فرصة أكبر للفوضى حيث تبقى المجموعات الحضارية الضعيفة تحت رحمة المجموعة الحضارية الأقوى. وفي المقابل فإن وجود بيئة دولية تمتلك نظاماً دولياً محدداً يساعد على تشجيع ودعم التفاعل الحواري والتعاوني بين المجموعات، وكلما تطور هذا النظام إلى مؤسسات دولية مستقلة ذات طابع قانوني وليس سياسي فقط ساعد في الحد من التفاعل الصراعي بين المجموعات والكيانات الدولية. وعليه يتأثر التفاعل بطبيعة القيم والأعراف التي تسود البيئة الدولية 7

ثانياً: مجالات الحوار الحضاري: تتعدد مجالات الحوار وتتنوع، غير أن أهمها المجالات التالية :

• المجال الثقافي والحضاري: والحوار فيه يهدف إلى التعارف وتصحيح المفاهيم الخاطئة والصور المشوهة، كما يهدف إلى التفاهم على الجوامع المشتركة بين الثقافات والحضارات، وإلى التلاقح الثقافي والحضاري الذي ينتج الإبداع والتجديد.

ومن شروط نجاح الحوار بين الحضارات واستمراره أن يكون نشاطاً دائماً متجدداً، لأن الإحاطة بجوانب التميز والتغاير، ثم الاستفادة منها في تبادل الخبرة والمعرفة ووسائل النمو والترقي، لا يتم في جلسة أو عدة جلسات ولا يحيط به فرد أو مجموعة أفراد ولكنه يحتاج إلى تواصل مستمر يتعدد المشاركون فيه بتعدد جوانب الحياة وتكاثر التخصصات فيها، حتى يؤدي ثمرته ويحقق غايته 8

• المجال الديني: إنّ حوار الحضارات هو مشروع حياة البشرية ومستقبلها والمنهج الذي يدفع الشعوب إلى أن تتعاطى مع بعضها بالأسلوب الإنساني الرفيع

القائم على أساس التعارف لا الخصام . وإذا كان من المفيد أن تسود المحاملات لدى الحديث عن العلاقة بين الأديان، فإبراز المحاملات أفضل من إشهار المخالفات. إلا أن من القيم الوقوف بكل موضوعية عند دراسة العلاقة بين الأديان. وفي مستهل الحديث لابد من التطرق إلى معرفة معنى الدين . في هذا الصدد نشير إلى أن " كل دين يتألف من جدر غيبي يؤمن به كل متدين ، ينبثق أو يضاف إليه نظام أخلاقي تنبثق منه أو تضاف إليه ، في معظم الحالات قواعد عملية السلوك اليومي"9

"فالأصل في الدين أن يكون الترابط وثيقا بين الجدر الغيبي من جهة وبين النظام الأخلاقي وقواعد السلوك اليومي من جهة أخرى. وتسند الأديان الكبرى الجدر الغيبي إلى الله، كما تسند معه إلى الله أيضا النظام الأخلاقي وقواعد السلوك اليومي العملية"10

وهذه الأديان الكبرى هي معروفة بالأديان السماوية أو التوحيدية ولا بأس أن نذكر أن الدين يلعب دورا حيويا في تقوية علامات السلم وتعزيز الظروف الضرورية للسلم ، ويتم ذلك عندما يركز الدين على هدفه الأساسي . التركيز على الله الذي يدعو إلى الأخوة، ونشر ثقافة التضامن البشري.

• المجال السياسي :

والحوار فيه يهدف إلى احترام قواعد القانون الدولي والالتزام بالشرعية الدولية، وإقامة العلاقات الثنائية بين الدول على أساس الالتزام والاحترام المتبادلين، والعمل من أجل استتباب الأمن والسلام في ربوع العالم، ومحاربة الإرهاب، ودعم حق الشعوب في

الدفاع عن سيادتها وتحرير أراضيها. وفي بلاد الاسلام الرغبة في رؤية الأمة العربية الإسلامية تتحرر من الاستسلام لسياسة ردود الأفعال وتتعلم كيف تحول الضرورات التي تواجهها - مثل ضرورة الرد على الهجمة الغربية الراهنة - إلى فرص تستثمرها لمصلحة أهدافها العليا

• المجال الاقتصادي : والحوار فيه يهدف إلى تطوير العلاقات التجارية بين الدول في إطار القوانين الدولية، وبما يحقق المصالح المشتركة فيما بينها، بعيداً عن أي نوع من الاستغلال، ودعم جهود التنمية الشاملة والمتكاملة خصوصاً في الدول النامية، ومنع الاحتكار والاستغلال واستنزاف الموارد الطبيعية والمواد الأولية للدول الفقيرة، وإقامة أسس جديدة للتجارة الدولية لضمان العدل والإنصاف.

فالمجتمعات الإنسانية تتطلع اليوم إلى تجنيد جميع قواها وإمكاناتها المادية والبشرية إلى الحوار وجمع الكلمة والعيش المشترك وتطوير العلاقات الإنسانية والدولية إلى مستوى الأفراد والجماعات والدول والتجمعات الإقليمية والدولية، ذلك أن الحضارة جهد مشترك إلا إنه في عصر العولمة ظهر مصطلح جماعات المصالح الاقتصادية الدولية حيث في نهاية القرن العشرين أدت المتغيرات الدولية إلى بروز العامل الاقتصادي كأساس بوصفه العنصر المحرك والمكون الأساسي للقوة والذي سيتحكم مستقبلاً في تحديد أنماط السياسات المستقبلية . وانطلاقاً من ذلك العديد من الدول وخصوصاً الدول الرأسمالية الكبرى بدأت تستعمل العامل الاقتصادي بشكل مكثف كوسيلة للتعامل ولمواجهة التهديدات الموجهة إلى مصالحها ، وهكذا " برز العامل الاقتصادي

أداة ترغيب وخلق حوافز أو أداة للترهيب والضرب والاحتواء . وهذا ما تقوم به الدول الرأسمالية الغنية بتحالفها وتكتلها اقتصادياً مع بعضها البعض بشكل مباشر من خلال الجماعات و التكتلات الرأسمالية الاحتكارية " كوكالة الطاقة الدولية ونادبي باريس ولندن " أو بشكل غير مباشر من خلال المؤسسات والهيئات الدولية متعددة الجنسية " كمنظمة التجارة العالمية ، وصندوق النقد والبنك الدوليين، والشركات متعددة الجنسيات " 11.

الخاتمة :

خلال السنوات الأخيرة ، خاصة بعد أحداث سبتمبر 2001 شكل الحوار بين الحضارات تحدياً حقيقياً وجاداً أمام كافة المبادرات الخاصة بالحوار لإثبات مصداقيتها وتأثيرها المتعدد الأبعاد في العالم كله ، سواء على دوائر صنع القرار أو وسائل الإعلام أو المراكز الأكاديمية والبحثية أو منظمات المجتمع المدني ، فهذا التأثير وتلك المصداقية هما المعيار والحكم على صلة هذه المبادرات بالواقع المعاش والقدرة على إحداث تغيير إيجابي في مناهج التفكير والسلوك والتعامل مع الآخر . ولئن كان الحوار بذاته ليس جديداً ، إلا أنّ أرضية جديدة تشكّلت إثر زلزال 11 سبتمبر الذي ترك بصماته بقوة على خارطة العلاقات الدولية ، بما فيها الجوانب الحضارية . إذ أصبحت الدعوة لحوار الثقافات حيناً ، وحوار الحضارات والأديان أحياناً أخرى ، تمثل القاسم المشترك بين الكثير من المثقفين ورجال السياسة والدين والمفكرين في العالم كلّ.

المراجع:

1. أنظر، د. عبد القادر الشيهلي، أخلاقيات الحوار، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن 1993 صص 14.12
2. أنظر إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، الصادر عن المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، في نوفمبر 1996، المواد 4.7.8.
- 3: أنظر، د. عبد القادر الشيهلي، أخلاقيات الحوار، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن 1993 صص 2620
- 4) الحوار من أجل التعايش، د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار الشروق، القاهرة. 2001 ص 74
- 5 أنظر حوار الحضارات، الرئيس الإيراني السيد محمد خاتمي، ترجمة سمر الطائي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 2002 م.، ص: 3936
- 6مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة، العدد 33-34، عام 2003م، مقال بعنوان: المسلم والآخر: رؤية تاريخية، عماد الدين خليل
- 7-إمام عبد الفتاح امام مسيرة الديمقراطية رؤية فلسفية، مجلة الفكر العدد الثاني أكتوبر 1993 ص 2320
- 8 د. أحمد فتحي سرور، دور الجامعات في التطوير وفي حوار الحضارات، جريدة (الأهرام) القاهرة، 19 أكتوبر 2004
- 9 ج حور تاملات موجزة في العلاقة بين الأديان ورقة مقدمة الى الندوة الدولية عن الاسلام والسلام تونس 15-17. 04. 2003
- 10- المرجع نفسه

- 11 . سمعان بطرس فرج الله : البعد الثقافي للشراكة الأوربية المتوسطة، أعمال ندوة مستقبل الترتيبات الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط وتأثيراتها على الوطن العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1998